الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[الفيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٢ —

البطل الضرير :

أدت نظرة ملتن إلى المرأة أنها دون الرجل منزلة وعقلا إلى إهمال منه معيب في تعليم بناته فكبرن وحظهن من الثقافة قليل ، وكن لا يعرفن إلا لغتهن إذ رفض أبوهن أن يعلمهن لغة غيرها . وكان يقول في ذلك ساخراً « حسب المرأة لسان واحد » ؛ وكان أبوهن في شغل عنهن أكثر الأوقات بكتبياته وخصوماته وأعباء منصبه فكان يترك أمورهن للخدم . والحق أن ملتن كان متخلفاً عن عصره في النظر إلى تعليم البنت ولذلك لم يشايع كومنس حين كتب هو عن التعليم رسالته التي سلفت الإشارة إليها إذ كان كومنس يذهب مذهب أفلاطون في المساواة بين البنين والبنات ، وكان لا يعنى ملتن إلا بالبنين ، وعنده أن من العبث تعليم البنت كما تعلم الكائنات العاقلة على حد تعبيره .

وأملت عليه بيوريتانيته أن يحيط بناته بشيء من الخشونة فلم يمتعهن كما تتمتع البنات إلا قليلا ، فأحسن استبداده بهن وإن لم يشعرن منه بغلظة أو فظاظة ، وزاد إحساسهن شدة حرمانهن من أمهن ، فقر في نفوسهن شيء يشبه أن يكون جفاء منهن لأبيهن .

ولما عاد ملتن إلى الشعر وأراد أن يرجع إلى الكتب التي تتصل بموضوعه ، كان يقرأ له ويكتب رجل استأجره لذلك ، ولكنه كان لا يعرف غير الانجليزية حتى لقد شكا ملتن في كتاب إلى صديقه أنه كثيراً ما يتضجر ويضيق بهذا الكاتب الذي يضطره إلى أن يذكر له هجاء كل عبارة لا يتبينه يمليها عليه كلمة كلمة ، وكان يقرأ له أحياناً بعض الشباب ممن تنافسوا في الحظوة بهذا الشرف وممن طلبوا الفائدة من القراءة له ، كما كان يرسل بعض أصدقائه أبناءهم ليحظوا عنده بالقراءة أو الكتابة له وليقوموا بذلك ألسنتهم وليفيدوا عرفانا وبياناً .

ولكنه كان لا يضمن مجيء هؤلاء إليه كل حين ، وعلى ذلك فقد عول على تعليم بناته النطق باللغات المختلفة وهن لا يفهمن شيئاً مما تتحرك به ألسنتهن وبذل في ذلك جهداً كبيراً وهو على حاله من المرض والعمى ؛ وإنه لعجب أن يحرص هذا الحرص كله على المعرفة فلا يقعد عن وسيلة مهما بلغ من عسرها وإنها لحالة تملأ النفس أسى على ما مسه من ضر بقدر ما تملؤها إعجاباً بعزيمته التي لا تعرف كلالا ولا سأماً . ولا ريب أنه كان يستشعر كثيراً من المرارة والحزن في تلك اللحظات التي لا يجد فيها من يقرأ له أو يكتب ما نظم من الشعر ، ولم يك له عزاء في هذا البلاء إلا استغراقه في قصيدته الكبرى وإقباله عليها بكل جوارحه وارتياح نفسه إلى أن يحقق أملا طالما طاف بخياله وأثلج فؤاده وأبهج نفسه .

وكان يدعو بناته ليقرأن له ما يطلب من الكتب اللاتينية والعبرية والأغريقية والفرنسية والطليانية والأسبانية ، فينطقن نطقاً آلياً بعبارات لا يفهمن منها بالضرورة شيئاً ؛ وكن يضقن بهذا ويتبرمن به ويتضجرن منه ، وحق لهن أن يكرهن هذا العمل كرهاً شديداً ، فإذا دعاهن أبوهن إليه أقبلن متثاقلات متكرهات ، ثم اعتذرت كبراهن بما في لسانها من حصر لا تحسن معه النطق فأعفاها أبوها من القراءة وجعلها للكتابة فوقع عبء القراءة على الوسطى فازدادت بذلك ضيقاً وضجراً .

وما زال يشتد ضجر ماري وهي الوسطى حتى أصبح تمرداً وعصياناً فصارت تهمل ما يطلب إليها أبوها متثاقلة أو متناسية . وكانت تعرض عنه أحياناً ساخطة ناقمة ؛ وصبرت دبورا وهي الصغرى بعض الصبر ، ولكنها ما لبثت أن تكرهت لأبيها وخشنت عليه وما برحت تشكو لأختيها أنه يدعوها في أي ساعة من ساعات الليل فيوقظها وهي مستغرقة في نومها لتكتب بضعة أسطر نظمها .

وتفاقم الأمر فكره البنات أباهن حتى ما يطقنه ؛ قالت الوسطى مرة وقد سمعت أنه يزمع أن يتزوج « ليس فى الحديث عن زواجه ما يعد جديداً من الأنباء أما أن أسمع بموته ففى ذلك ما يؤبه له » .

وتآمر البنات مع إحدى الخدم على غشه فيما يشترى ويبيع مما يحتاج المنزل إليه ، وفعلن أقبح من ذلك فأعنّ الخدم على بيع كتبه بغير علمه فإذا علم بشىء من هذا مسّ الحزن قلبه مساً شديداً ولكنه يكظم غيظه ويكتم أمره عن الصحب والجيرة مخافة العار ، وكم كان وقع ذلك أليماً على نفس كبيرة مثل نفسه ، وكم كان يشعره ذلك بما آل إليه حاله من استكانة بعد عزة ، ويذكره بهذا الضر الذى أحاطه بالظلمة فجعل من بناته عدوات له .

ولكن روحه قوية على الرغم من هذا كله ، وإقباله على قصيدته واستشرافه لآفاقها الفسيحة العليا يدفع عن نفسه القنوط إذ يرفعها من عالم صغير حقير إلى ملكوت لا يدرك جلاله وعظمته إلا عقل مثل عقله وروح مثل روحه . ولقد كان له فى الشعر أعظم الغناء وأطيبه وإن كان يعمد أحياناً إلى قيثارته فتختلج أوتارها بين يديه بلحن يسرى به عن نفسه أو يهيىء به جواً ملائماً لما تجيش به نفسه من شعر .

عود إلى الشعر :

انقطع ملتن عن الشعر منذ سنة ١٦٤١ كما سلف القول ، ولم يكد يعود إليه سنة ١٦٥٨ حتى انشغل عنه بما كتب فى عهد ريتشارد وقبيل عودة الملكية . ثم أقبل عليه إقبالا غير منقطع منذ أن نجا بحياته فى أواخر سنة ١٦٦٠ ؛ ومن ذلك نرى أنه انصرف عن الشعر قرابة عشرين سنة وهى مدة طويلة لم يقضها فى تأمل وهدوء وتهيؤ على نحو ما كان يفعل فى هورتون ، وإنما كانت حياته فيها كما رأينا مليئة بالأحداث حافلة بالخصومات ، ولكنه أفاد خبرة عظيمة وتم نضجه فأصبح كالشجرة المحملة بالثمرات تجود بأطيبها لأقل هزة ...

ولم تخل هذه السنوات العشرون من الشعر خلواً تاماً فقد نظم الشاعر أثناءها بعض المقطوعات فى مناسبات مختلفة ، وليست هذه المقطوعات من نفاية الشعر كما قد يخيل إلى المرء فإن لها لشأناً جليلا فى ذاتها ومنزلة سامية فى تاريخ هذا النوع الذى نسميه المقطوعات ، ولذلك نرى أنه يجدر بنا أن نتكلم عنها ونبين مبلغ ما لها من خطر فى الشعر الانجليزى قبل أن نتكلم عن الفردوس المفقود وما جاء بعدها .

جاء ملتن من هذه المقطوعات بما لم يأته فيه كثير من أفذاذ هذا الضرب من النظم منتهاه ، ولقد قلّ فيه أكفاؤه وذهب له فيه صيت عظيم جعله نداً لشكسبير فى هذا الباب على قلة ما نظم منه بالقياس إلى شكسبير إن لم يك يبزه فى أكثر من ناحية من نواحيه . ولقد أصبح فيه مثالا لمن جاء بعده فاحتذى حذوه وأعجب به ورد ورث وكيتس وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر .

ولا بد لنا من كلمة فى أصل هذه المقطوعات ونشأتها لا فى شعر ملتن وحده ولا فى الشعر الانجليزى وحده ولكن فى الشعر الأوروبى بوجه عام ثم نعطف الكلام بعد على مبلغ ما توافى لملتن فيها من براعة وتبريز .

لم يقطع نقدة الأدب الأوروبى برأى فى نشأة المقطوعات[1] وتسميتها بهذا الإسم الذى سموها به ؛ يرى بعضهم أن الإيطاليين هم مبتدعوها ، وأن اسمها يرجع إلى لفظ إيطالى معناه اللحن الصغير أو الصوت الصغير[2] وهو لحن كان يغنى على عود أو قيثارة . ويرى فريق آخر أن منبتها كان فى فرنسا فى مقاطعة بروفانس وأن اسمها نجم من تلك الكلمة الفرنسية التى تطلق على الجرس الصغير[3] أو جرس الغنمات . ويذهب البعض إلى أن أصلها أغريقى وأن الأغريق اختاروا لها لحنها ووضعها الفتى بعد أن مرت على عدة أطوار من الخلق والابتكار . ولأحد النقدة وهو وليم تشارب رأى غير هذه جميعاً فهو يردها إلى أغانى الرعاة فى سقلية وجنوبى إيطاليا ويرى أنها انتهت إلى وضعها المعروف بعد أطوار مختلفة ، ويرد اسمها إلى الإسم الذى كان يطلق فى هاتيك الجهات على أغنيات الفلاحين والرعاة[4] على وجه العموم .

---

(١) Sonnets : وقد اخترنا لها لفظ المقطوعات فى العربية ، وإن كان لا يؤدى المعنى الفنى لها ، ولكنا على أى حال خير من تسميتها بالأغنيات

(٢) Sonetto (٣) Sonnette (٤) Stornello

وكان أول ما ظهرت تلك المقطوعات فى صورتهـا ولحنها الخاصين بها فى الأدب الإيطالى فى القرن الثالث عشر فى شعر شاعرين هما : بيردل شِنى وجيوتودارزُّو ؛ وكذلك كان أول من طرق هذا الضرب من النظم من كبار الشعراء من الإيطاليين فقد تغنى دانتى فى أواخر القرن الثالث عشر بحبيبة قلبه بياتريس فاتخذ لغنائه عدداً من هاتيك الألحان ، وكذلك أفصح بترارك فى أوائل القرن الرابع عشر عما ينبض به قلبه من حب لمشوقته لورا بعدد من تلك الأصوات الصغيرة التى سميناها المقطوعات .

أما عن الصورة أو الوضع الذى انتهت إليـه المقطوعة فى الأدب الإيطالى فانها لم تك تزيد على أربعة عشر سطراً . ثمانية منها تكون من حيث النغم والموضوع فاتحة المقطوعة أوصدرها ، وتكون الستة الباقية خاتمتها أو « قفلتها » ، ولا بد فى الفاتحة أن تجرى قوافيها على وضع معين، فالقافية فى السطر الأول مشاكلة لها فى الرابع وبينهما الثانى والثالث متحدة قافيتهما ولـكنها مغايرة لما بدأت به المقطوعة ، ثم يكرر هذا الوضع حتى تتم الأسطر الثمانية[1] بعد ذلك وتغير القافية فى الأسطر الستة التى تكون الخاتمة على أساس أن تكون ثلاثتها الأولى مشاكلة لثلاثتها الثانية[2] .

وأما عن موضوع المقطوعة فهى كما يفهم من حجمها يقصد بها التعبير عن معنى من المعانى تجيش به النفس فى مناسبة من المناسبات ، أو هى تسجيل لخاطر يخطر للقلب فى غير استطراد يخرج به عن أن يكون خاطراً هو ابن لحظته أو ابن مناسبته ؛ ويقول فى ذلك وليم شارب إن المقطوعة « هى خير وسيلة للتعبير عن خاطر شعرى منعزل عن غيره تعبيراً موجزاً محدوداً » ؛ وتقتضى طبيعتها أو يقتضى النجاح فيها أن يكون التعبير قوياً رائعاً يجمع إلى عمق الفـكرة وجمالها بلاغة اللفظ وإشراقه ، كل أولئك فى إيجاز لا يخـل بالمعنى المراد . وما أجمل ما وصف به روزتى المقطوعة وهو من الشعراء الذين أحبوها وبرعوا فيها فى القرن التاسع عشر ، قال « إن المقطوعة هى تمثال لحظة » وهذا التعبير القوى الجميل هو من قبيل ما يجب أن تبنى منه المقطوعات القوية أو التى تتسم بالنجاح ؛ ومن هـذا ندرك أنها عمل فنى يتطلب قدراً كبيراً من البراعة الفنية والطاقة الشعرية ، وحسب الشاعر أنه يقيم تمثالا فى لحظة ولن يكون التمثال جديراً باسمه وبالغرض منه إلا إذا حملك على الإعجاب به والشعور تلقاءه بما تشعر به تلقاء كل عمل فنى من روعة الفن وجلاله .

والمقطوعة ضرب من الشعر الغنائى ، ولـكنها تختلف عن القصيدة الغنائية الصغيرة بما ينبغى أن يلقيه الشاعر على غنائه من الوقار والاحتشام فلا يتبذل ولا يسف ولا يتلاعب بالألفاظ والأسجاع وألوان التورية وأشباهها مما يستساغ فى القصيدة العادية ولا يجوز هنا ، حيث ينبغى التأمل والتسامى كى يأتى التمثال معبراً عما يراد به التعبير عنه ، وماتقام التماثيل إلا للجليل من الأشخاص والأفـكار .

وقد شبه أحد النقدة لحن المقطوعة بالموجة إذ يتدفق ويتجمع ماؤها فتموج به وترتفع ثم تهبط فتنساح ويرتد الماء ليعود ثانية إلى البحر ، والمقصود من هذا التشبيه أن المقطوعة وحدة غنائية ملتزمة الصورة واللحن فلا حرية فيها للشاعر أن يجرى ألحانه كيفما شاء وأن يتظرف ويتخلع وينطلق حسبما يتجـه خياله ومزاجه وهواه .

وظهرت المقطوعـة أول ما ظهرت فى الانجليزية فى ثنايا كتاب نشره أحد رجال الأدب واسمه تُتيل سنة ١٥٥٧ تحت عنوان « خليط من الأغانى والمقطوعات » ولما كانت مقطوعات كثيرة منها غفلا من أسماء أصحابها فليس يدرى من الرائد فى هذا الضرب من النظم فى الانجليزية ، على أن الانجليز لم يتبعوا ما وضعه الإيطاليون ، فقد تصرفوا فيه وأتوا بصورة جديدة للمقطوعة وإن بقى عدد أسطرها كما هو فى المقطوعة الإيطالية ، وجاءت الصورة الانجليزية أيسر بناء من الصورة الإيطالية كما يتبين من طريقة التقفية فيها[1] ، وليس يشترط فيها أن يكون هناك تغير بين صدرها وخاتمتها وإن كان الغالب أن يحدث هذا التغير كما هو واضح من المثال الذى أثبتناه فى ذيل الصفحة ؛

(١) تكون على هذا النحو إذا رمزنا للقافية بحروف (ا ب ب ا ا ب ب ا)
(٢) (ج د هـ ج د هـ)

(١) جاءها على هذا النحو (ا ب ا ب ج د ج د هـ و هـ و ز ز) .